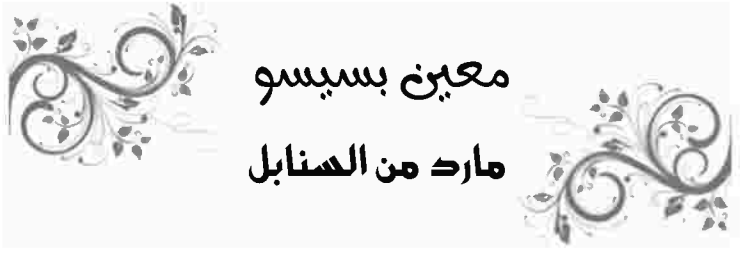

فرسان المقاومة الفلسطينية كثيرون.. ومعظمهم تعرض للنفي والسجن والتشريد.. وكانوا جميعاً فى موقع الصمود والتمرد على مؤامرات الكيان الصهيوني.

وهناك دراسات كثيرة فى أشعار هؤلاء الشعراء خاصة تلك التى تناولت المقاومة ورفض الاستسلام.

لكننا لسنا فى مجال رصد شامل لشعراء المنافي والسجون.. وإنما نحن نقوم باختيار بعض هذه النماذج التى تتنوع تجاربهم ومواقفهم.

ومن هؤلاء شاعرنا معين بسيسو الذى ولد فى غزة عام 1926 وأنهى تعليمه الابتدائي والثانوي فى كلية غزة عام 1948.

وينتبه معين بسيسو إلى قضية وطنه.. فبدأ ينشر أعماله الشعرية والنثرية فى مجلة الحرية بيافا.

ثم التحق عام 1948 بالجامعة الأمريكية بالقاهرة وتخرج فيها عام 1952 من قسم الصحافة.

ثم انخرط فى العمل الوطنى.. وعمل بالصحافة والتحق بالحزب الشيوعى فى مصر.. وسجن مع شيوعى مصر مرتين (1955ـ1957) و(1959ـ1963) حيث استقر الحال فى السجن الحربى فى الواحات الخارجة..

وكان معين فى شبابه يتقدم المظاهرات بصدر مكشوف يستقبل به الموت ويهتف بشعره رافضاً توطين أهله فى سيناء.. أو المخيمات أو الشتات ويعلن ألا بديل عن أرض فلسطين.

ويتعرض للاضطهاد والاعتقال.. لكنه كان يخرج من كل تجربة أكثر قوة وشجاعة ووطنية.

أخذ معين يحث على النضال والمقاومة والثورة والتمسك بالأرض هو وشعراء آخرون مثل: (كمال ناصر ـ فدوى طوقان ـ حسن البحيرى ـ عبد الكريم الكرمى ـ محمود درويش).. ولا يعبئون بالسجن والأغلال.

وقد أصدر معين بسيسو عدة أعمال شعرية منها: كراسة فلسطين ـ مارد من السنابل ـ الأشجار تموت واقفة ـ فلسطين فى القلب ـ حينما تمطر الأحجار.

وله عدة دراسات نقدية.. كما كتب المسرح مثل: مأساة جيفارا ـ ثورة الزنج.. وحصل على جوائز عالمية وعربية.. ووسام فلسطين الثورة.

ثم يموت معين بسيسو مغترباً فى لندن إثر أزمة قلبية حادة فى 23/ 1/ 1984.. لكن إسرائيل منعت دفنه فى مسقط رأسه ـ غزة ـ فدفن فى مقبرة آل بسيسو بالقاهرة.

وقد تنقل معين بسيسو بين بلاد عربية وأجنبية كثيرة منفياً عن بلده فلسطين.. ففي سوريا عمل بجريدة الثورة.. وفى لبنان بمجلة المعركة.. وفى مصر بالأهرام.

وتدور أعمال معين بسيسو حول مأساة فلسطين وشئون الشعب الفلسطيني وقضيته العالقة.. ويصور فى شعره مأساته هو لكونه أحد أفراد

هذا الشعب المقهور.. والذى نال الاغتراب والتشتت.. لكنه يظل مصراً على المقاومة.

إنه يدعو إلى مواصلة المعركة فيقول:

أنا إن سقطت فخذ مكانى يا رفيقى فى الكفاح

واحمل سلاحى لا يخفك دمى يسيل من السلاح

وانظر إلى شفتىّ أطبقتا على هوج الرياح

وانظر إلى عينىّ أغمضتا على نور الصباح

أنا لم أمت .. أنا لم أزل أدعوك من خلف الجراح

وهذه هى قيمة الشهادة فى ميدان القتال.. فالشهيد حي فى عيون رفاقه لأنه أطبق شفتيه على الرياح وعينيه على نور الصباح.

أما صوته فلا يزال يرن فى آذان رفاقه باسم الجراح.. ويهدده الأعداء بالسجن والموت فيصرخ فى تحد:

أنا لا أخاف من السلاسل فاربطونى بالسلاسل

من عاش فى أرض الزلازل لا يخاف من الزلازل

لمن المشانق تنصبون.. لمن تشدون المقاصل

لن تطفئوا ـ مهما نفختم فى الدجى ـ هذى المشاعل

الشعب أوقدها وسار بها قوافل فى قوافل

ثم يطرق أبواب القضية بقوة.. ليعلن أن فلسطين ليست هماً يمكن الاستغناء عنه وإنما هى (فى القلب):

يا أيادى

ارفعى عن أرضى الخضراء ظل السلسلة

واحصدى من حقل شعبى سنبلة

فأنا لم أحضن الخبز ومن قمح بلادى

منذ أن هبت رياح مثقلات بالجراد

نهشت أرض بلادى

وجماهير بلادى

منذ أن شدوا لى اللقمة من ساق غزالِ

وعدا ملء الرمالِ

وهمُ قد غصبوا قوسى وسهمى ونصالى

وهمُ قد قطفوا زهر دمائى

غير أنى فى نماءِ

فجذورى تتحدى الفأس فى أرض بلادى

وهى خضراء تنادى

يا أيادى

ارفعى عن أرضى الخضراء

أغلال الجراد

وحصادى.. لى حصادى

أدرك معين بسيسو هذا القهر الذى أمطره وأمطر شعبه فماذا يفعل.. إنه لا يستسلم لأنه (فى نماء) برغم كل شئ لأن جذوره تتحدى الفأس فى الأرض.. وهذه الجذور لم تجف.. فما زالت خضراء.

إنه الأمل فى التحرر من الأغلال والقيود وهو صابر متحمل كل المشاق.. حتى ولو كان (السيف على العنق):

أخى لو شحذوا السيف على عنقى فلن أركعْ

ولو فى فمِىَ الدامى حبال سياطهم تُنقعْ

فلن أرجع عن فجرىَ.. لن أرجعَ.. لن أرجعْ

وقد أوشك أن يطلعَ.. قد أوشك أن يطلعْ

من الأرض التى من ثديها بركاننا يرضعْ

ما أجملها من صورة للأمل الذى يراود المناضلين.. وهو تحد قوى صامد أمام كل الاضطهاد والتشريد والقوة الغاشمة.

صحيح صارت خطاه دماءً وجثثا وشهداء.. لكنه كان يرى فى كل هذا بارقات الأمل والخلاص:

الضحايا قد عانقتها الضحايا

والأيادى تشابكت بالأيادى

فنهوضاً إلى النضال نهوضاً

لا يعيش البركان تحت الرمادِ

ولـــنُغَطَّ الـــسماءَ بالعلـــمِ الـــدا

مـــى فـــأعلام شـــعبنا فى ازديـــاد

ولنـــسر تحتهـــا خطـــى ولـــدتها

أمـــــهات الحـــــبال والأصـــــفادِ

وحينما يحذره الرفاق من العدو.. وينصحونه بالصمت يصرخ فى شموخ:

الصمت موت

قلها ومت

فالقول ليس ما يقوله السلطان والأمير

وليس تلك الضحكة التى يبيعها المهرج الكبير

للمهرج الصغير

فأنت إن نطقت مت

وأنت إن سكت مت

قلها.. ومت

ولم يصمت معين بسيسو حتى لا يموت وهو يتنفس هواء الحياة.. ويهاجمه الجنود ويقبضوا عليه.. ويتوجهون به إلى زنزانة السجن فيصف ذلك بقوله:

أنا الآن بين جنود الطـغاء

أنا الآن أسحب للمعتقل

وما زال وجـه أبـى ما ثلا

أمامـى .. يسـلّحنى بالأمل

وأمى .. وأمى .. أنين طويل

ومن حولها إخوتى يصرخون

ومـن حـولهم بعض جيراننا

وكل لـه.. ولـد فى السجون

ولكننى رغـم بطـش الجنود

رفعـت يـدا أثقلتها القيـود

وصحـت بهـم .. إننى عائد

بجيش الرفاق.. بجيش الرعود

نعم لن نموت نعم سوف نحيا

ولـو أكـل القيـد من عظمنا

ولـو مـزقتنا سـياط الطغاة

ولـو أشعلوا النار فى جسمنا

نعـم لـن نمـوت ولكننا

سـنقتلع المـوت من أرضنا

والقارئ لأشعار معين بسيسو يجدها مشحونة بالمعنى والصور الفنية بما يؤكد قدرته على الجمع بين إذكاء الشعور الوطني.. وفنية الشعر معا.

وهذه قصيدة تؤكد هذا الملمح فى شعره (دائرة الطباشير الفلسطينية) يقول فيها:

للشعراء

لون الشعر.. وللشهداء

لون فراش البحر

وللعشاق الباكين على قطرة ماء

لون طيور الماء

وللقتلة لون الخوذات البيضاء

ولون الدبابات البيضاء

يا أم على..

يا أم ثلاثة شهداء

ماذا تفعل شجرة ورد حمراء

فى زمن الجدران البيضاء

يا أم على..

ما زال على الحائط حجرٌ

تكتبه شجرة ورد حمراء

ثم يقول:

الكرمل سافر

والقسطل سافر

يا عبد القادر.. يا عبد القادر

يسقط آلاف الشهداء

لكى يكتب حجرٌ أو طائر

إن الأرض هى الضيف

على مائدة الشاعر

يحفل شعره إذن بالمعنى والرمز المستلهم من التراث والأساطير الشعبية والقصص الديني بما يؤكد عمق هويته العربيـة وإصراره عـلى الـصمود فى وجه العدو الذى أراد أن يمحو هذه الهوية بأسلحته وصلفه.

ونختتم هذه الأعمال الشعرية بقصيدة لها دلالاتها الخاصة حيث كتبهـا فى أثناء وجوده فى سجن الواحات تحت قسوة الحياة والمعاناة.. يقول معـين بسيسو فى قصيدته (المرتد):

وقّع.. وقع

اسمك فى ذيل الورقة وقّع

وقع وتسلل

كاللص إلى بيتك واحذر

ظلك أن يقع على مصنع

فامضع ظلك منديلاً من سم واهرع

ثم يقول:

سجانك أقبل

كالحفرة.. كالمعول

أين ستمضى..

ألبيتك؟

بيتك فى ظهرك خنجر

ألطفلك؟

طفلك فوق صليب الأوراق

بدميته سمّر

ستساق إلى الشاعر فتعثر

فى ظل السجان.. تعثر

أين ستمضى والريح تطير

خطواتك أسطر ورقة

ويرحل معين بسيسو تاركا لنا عصارة حياته ومقاومته برغم المنفي والسجن والأغلال.